الافتتاحيّة

الكتاب المقدّس والقرآن
من التباعد والتجافي إلى التعارف والتلاقي

رئيس التحرير

اعتاد الكثيرون على استخدام التسمية "الديانات الثلاث السماويّة أو التوحيديّة"، أو أيضًا "ديانات الكتاب"، والمقصود هو اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، لكنّ العالِمَ بحَقائق كلٍّ منها، وبجوهرها ومعتقداتها وأُسُسِها، لا يَقْبَل بهذا التماهي بين الديانات المذكورة، وتحديدًا بين الأولى والثانية، من جهة، وبين الثالثة، من جهة أخرى. هو الإسلام مَن استنبط تعبيرَ "الديانات التوحيديّة الثلاث"، "ديانات الكتاب"، والتي اعتاد عليها الكثيرون حتّى صاروا يردّدونها وكأنّها من المسلَّمات، عِلْمًا أنّ واقع الأمر هو على خلاف ذلك؛ من هنا كان الالتباس والغموض في هذه التسميات التي ينبغي مناقشتها، هي ذاتها كما أيضًا مضمونها، بطريقة موضوعيّة علميّة تفيد في إبراز حقيقة كلٍّ من الديانات التي نحن بصددها.

فعندما يجري الكلام على "الكتاب"، مثلاً، فأيّ "كتاب" هو المقصود؟ يحتاج هذا السؤال إلى إجابة موضوعيّة واضحة وموسّعة؛ فهذه الديانات الثلاث لا تتضمّن مفهومًا واحدًا "للوحي الإلهيّ"، لأنّ الوحي البيبليّ هو واحد ومتواصل، بينما الوحي القرآنيّ هو مختلف جوهريًّا عن سابقه؛ كذلك هي لا تفكّر بالطريقة ذاتها في علاقتها بـ"الوحي المكتوب"، الأمر الذي يؤدّي إلى تباين مُعْلَن، يُعَبَّر عنه أحيانًا كثيرة، ومع الأسف الشديد، بمواجهات تصل إلى حدّ العنف في مناطق وأماكن عدّة في العالم، وذلك كلّه باسم هويّة هذه أو تلك من الديانات. من الواضح أنّ هناك ديانةً واحدةً تصف ذاتها، وانطلاقًا من نصوص كتابها، بأنّها "ديانة الكتاب"، جاعلةً من كتابها الموضوعَ الرئيسيَّ لِوَحْيِها، هي الديانة الإسلاميّة التي نشأت في شبه الجزيرة العربيّة.

يُقال في القرآن بأنّ اليهود والنصارى هم "أهل كتاب"، أي أنّهم تلقّوا الكتاب وراثةً، لكنّ محمّد لا ينتمي إليهم. ويُتَّهَمُ وَرَثَةُ الكتاب هؤلاء بأنّهم أيضًا ابتعدوا عن الكتاب، وبأنّهم حذفوا بعض أجزائه. هكذا بإمكان الإسلام أن يعتبر ذاتَه بأنّه الديانة التي أتتْ بـ"الكتاب" إلى المنبوذين من الوحي المكتوب.

ليست المسألة مسألة إرجاع نصوص القرآن إرجاعًا ماديًّا دقيقًا إلى الكتاب المقدّس، إنْ مِنْ حيث الاستشهادات وإنْ من حيث الشخصيّات البيبليّة

التي ليست في النصوص القرآنيّة أبدًا نقلاً حرفيًّا عن الكتاب المقدّس. إنّ المقارنة بين الكتاب المقدّس والقرآن تتطلّب منّا، يهودًا ومسيحيّين أوّلاً، أن نتعرّف إلى القرآن، ونكتشفه، مع ما يكتنزه بحدّ ذاته وبالنسبة إلى المسلمين، ونتبيّن الرباط القائم بين المُسْلِم وبَيْنَه، بعد العمل المعمَّق حول العلاقة بين القرآن وما سبقه من كتب مقدّسة عند اليهود وعند المسيحيّين. ويُطلَب الأمرُ عينه من المسلمين، فيتعرّفوا إلى العهدَين القديم والجديد، مع يستتبع ذلك من مواقف لا يجوز أن تكون إلاّ خيّرة وبنّاءة للجميع.

يختبر اليهوديّ أو المسيحيّ العالِمان في الكتاب المقدّس، عندما قراءتهما القرآن، أنّ هذا الأخير يتضمّن عناصر غير قليلة يعرفانها من كتابهما المقدّس؛ فهل نحن أمام تواصل، أم تكامل، أم أيضًا أمام حلول الواحد محلّ الآخر؟ ليس الجواب بالصعب، ولكنّه أيضًا ليس بالسهل؛ فظاهر الكلام في النصوص التي تبدو وكأنّها مشتركة هو ليس كذلك في العمق وفي الواقع؛ كذلك لا يعني تشابه الشخصيّات البيبليّة أنّ المدلولات والأغراض والأهداف هي عينها؛ لذا، فعند تَنَاوُلِ النصوصِ والشخصيّاتِ في البحوث، من الضرورة بمكان التمييز بموضوعيّة متجرّدة وبجدّيّة علميّة بين ما هو بيبليّ وبين ما هو قرآنيّ، وبين مفاهيم الاثنين للموضوعات المتشابهة أو تلك التي تبدو كذلك ظاهريًّا. إنّ احتواء القرآن على قصص وروايات حول شخصيّات بيبليّة من العهد القديم، وتحديدًا التوراة، ومن العهد الجديد، لا يعني بالضرورة أنّ المعنى البيبليّ واللاهوتي هو ذاته، لا بل نحن نعلم علم اليقين أنّ الاختلاف بين الاثنين أكيد وواضح المعالم، وما يؤكّد ذلك هو أنّ المصدر المباشر ليس دائمًا الكتاب المقدّس بل مجموعة من القصص والروايات التي استوحت هذا الأخير ونشأت بالتالي حوله، أوّلاً شفهيًّا، وفي مرحلة لاحقة كتابيًّا. كذلك، مَن يتصفّح القرآن يتبيّن بجلاء أنّ القصص والروايات البيبليّة الواردة في القرآن، خاصّة تلك المتعلّقة بالوجوه البيبليّة الرئيسيّة، هي غير شاملة، ولا مرتّبة وفق تسلسلها في الكتاب المقدّس.

بالمقابل، لا بُدَّ من إيلاء الموضوعات المشتركة، وإن كانت ذات مفاهيم وأبعاد متنوّعة، اهتمامًا خاصًّا، كونها تؤدّي في نهاية المطاف إلى تقريب الناس، على اختلاف انتماءاتهم الدينيّة، الواحد إلى الآخر؛ فإذا كان القرآن يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، فإنّه في ذلك في خطّ الكتاب المقدّس، ولكن على طريقته، وإن كان يرى في الله الخالق، والقاضي، والرحمن الرحيم، فهو ليس ببعيد عمّا يعلّمه الكتاب المقدّس، دون إهمال الفرق بين الاثنين في مضمون كلٍّ من هذه الصفات. لذلك، يحسن إبراز نقاط الاختلاف، إبعادًا لأيّ خلاف وتلافيًا له، ونقاط التشابه والتوافقُ والتجانس، توطيدًا لأواصر التعاطي الراقي المؤدّي إلى الخير المشترك والسلام العامّ.

ما يهمّنا في مجلّة بيبليا، من خلال تكريس أعداد ثلاثة لموضوع "الكتاب المقدّس والقرآن"، وهذا بالتأكيد يبقى جزئيًّا وغير كاف، هو الإسهام في حثّ المسيحيّين على التعرّف إلى القرآن، وبالتالي إلى المسلمين، بطريقة علميّة جيّدة، وحثّ المسلمين على التعرّف إلى الكتاب المقدّس، بالطريقة عينها، بهدف إزاحة السطحيّة التي تسخّف وتولّد بالتالي آراء ومواقف لا تؤدّي إلاّ إلى ما يبلبل ويؤذي ويسيء.

أنعجز عن أن نكون أصحاب رسالة نبيلة من خلال التعرّف المتبادل في هذا السياق، وإعطاء قدوة حسنة للعالَم في التعاطي المتجرّد والراقي، في زمن كثرت فيه تيّاراتُ إقصاءِ الآخر، والرغبةُ القاتلةُ في إنهائه، والتبجّحُ الفارغُ بالذات وبالهويّة؟!! أَنَحْنُ عاجزون، وقد بلغت البشريّة إلى لا ما لم يكن يخطر ببالٍ في مجالات العلم والاكتشافات المذهلة، عن أن نتبحّر في الكتاب المقدّس وفي القرآن، ونتبيّن ما فيهما لخير الإنسان والإنسانيّة؟

إنّ السلام والمحبّة والعدالة والأخوّة والرحمة

وغيرها من القِيَم العظيمة هي بحاجة ملحّة وماسّة إلى التنوّر بنور المعرفة التي تهدم الجهل، وتحدّ بالتالي من الحروب، وتقضي على الظلام، وتزيل البغضاء، وتحرّك القلوب. لذلك، لا بدّ من التعارف بيبليًّا وقرآنيًّا، ثمّ مسيحيًّا وإسلاميًّا، ولا بدّ بعد ذلك من التلاقي المنوّر والنبيل بين المسيحيّين والمسلمين، ليكون للجميع الفرح والحبّ والوئام.

أَحُلْمٌ؟!! كلاّ، إذ ليس أمرٌ عسيرٌ عند المؤمنِ الحقِّ بالله!